المشرق

تاريخ الشهر المريميّ ومعناه

نبذة للاب ابداي لوريول اليسوعي

انّ التعبُّد للعذراء الطاهرة والدة الاله لَمن الميزات التي خُصَّت بها الكنيسة الكاثوليكيَّة اخذتهُ عن تقليد متواتر يتسلسل الى عهد الرُّسل. ولا غرو فانَّ المسيح اوصى بامّهِ على صليبهِ تلميذهُ الحبيب كما جعل والدتهُ أمًّا لهُ فتبادلت منذ ذاك الحين عواطف الاكرام وعوامل الحبّ بين الامّ والابن

على انَّ يوحنَّا الانجيليّ لم يك وقتئذٍ غير وصيّ للكنيسة يقوم مقامها ويمثلها بشخصهِ الكريم كما أثبت ذلك جمهور الآباء والمعلمين. ومن ثمَّ لمَّا اخذها التلميذ الحبيب الى خاصَّتهِ (يوحنَّا ١٩: ٢٧) دخلت ايضًا في خاصَّة الكنيسة فاضحت امًّا للمؤمنين تقوم بشؤونهم وتشفع بهم وهم يقدّمون لها فرائض الابناء المخلصين. ولنا على ذلك شاهد صادق في اوَّل اجتماع الرُّسل والمؤمنين في العلّيَّة الصهيونيَّة اذ كانوا يلازمونها ويتوسَّلون بها الى الله ليرسل لهم روحهُ الاقدس (سفر الاعمال ١: ١٤) واليها اشار التلميذ الحبيب في سفر الرؤيا (١٢: ١). قد رآها كآية عظيمة في السماء. وهي «ملتحفة بالشمس وتحت قدميها القمر وعلى رأسها اكليل من اثني عشر كوكبًا»

فلمَّا وجدت الكنيسة منذ قرونها الأولى في الاسفار المقدَّسة ركنًا متينًا تستند اليهِ عبادتها لم تشأ بعد ذلك ان تفصل الابن عن امّهِ وعرفت انَّ اكرام الامّ مهما كان بليغًا يعود الى الابن ولا يحلُّ بشرفهِ البتَّة

ولو تتبَّعنا آثار التعبُّد لملكة السماء في تاريخ بيعة الله شرقًا وغربًا لاتَّسع بنا

الكلام وافضى بنا الى الاسهاب الممل. وحسبنا القول انّ لآباء الكنيسة الشرقيّة الاوّلين من الاوصاف والمدائح في مريم امّ الربّ ما لا يُبقي شكًّا في انتشار العبادة نحوها في تلك الاجيال القاصية. امّا الغرب فقد اورثنا فضلًا عن اقوال ملافتة دلائلَ أخرى محسوسة على اعتباره للبتول الجليلة وتعظيمه لامّ الخالق ألا وهي الصور البديعة التي رسمها نصارى رومة العظمى في الديامس واكتشفها آل العاديات كالاب مركي اليسوعيّ والعلّامة الشهير ميشال دي روسّي فكان اكتشافها احسن تفنيد لمزاعم من قوّف الكاثوليك بإحداث العبادة لمريم. وقد وُجدت هذه الصور في مدافن القرن الثاني والثالث للمسيح كمدفن فلاڤية دوميتلاّ من نسل القياصرة ومدفن البابا كليكتس ومدفن القديسة أغنس ترى فيها صور العذراء على هيئات شتّى وفي حجرها ابدًا الطفلُ الالهيّ الذي اليه مرجع عظمتها وسموّ مقامها

فلا سبيل اذن الى الزعم بان عبادة العذراء من مبتدعات الكنيسة الكاثوليكيّة بل الأحرى ان يقال انّها متأصّلة في جذور العقائد النصرانيّة مرتبطة بها ارتباطًا غير منفصم منذ نشأتها الأولى

*

هذا وأننا لا ننكر انّ هذا التعبُّد مع قدمه لم يبرز في كل الاعصار على منوال واحد بل ترى المؤمنين قد بحثوا في كلّ جيل على طرائق جديدة لاكرام امّ المخلّص. وقد توفّرت هذه العبادات في كلّ صقع واختلفت باختلاف الاماكن والازمنة واحوال الشعوب لاسيّما بعد الجمع الافسسي سنة ٤٣١ حيث أبكم آباء الكنيسة فمّ تسطور المجدّف على امّ الله واصلتوا عليه سيف الحرم والقطع. ومما شاع منذ ذلك العهد في انحاء الغرب السلامُ الملائكي على صورته المعروفة اليوم وهو ينسب الى البابا سلستين (٤٢٣–٤٣٢) جملةُ كدستور الايمان الكاثوليكيّ في الأمومة الالهيّة. وبه يلحق تعبُّدان آخران نراهما اليوم منتشرين في كل العمور يرقى احدهما الى اواخر القرن الحادي عشر وهو صلاة بشارة الملاك (التبشير) والثاني عبادة الورديّة تُعزى الى القديس عبد الاحد في اوائل القرن الثالث عشر

ومما يهمّنا اليوم البحث عنهُ صنفٌ آخر من التكريم للعذراء المجيدة يعود كلّ سنة في فصل الربيع نعني به الشهر المريميّ فانّ هذه العبادة التقويّة قد اصابت بين المؤمنين

حظوى كبيرة فتراهم يقبلون على ممارستها اي إقبال حتى لا تكاد تجد كنيسة الّا وترنُّ فيها كلّ مساء محامد مريم وتسابيحها مدّة شهر ايّار بتمامه

فيا تُرى متى نشأت هذه العبادة وما معناها؟ ذانك سؤالان ربّما عرضهما علينا المستفيدون فاحببنا الجواب عنهما في صفحات مجلّة المشرق في بدء شهر نوّار المخصّص بهذا التعبُّد المستحب فنقول:

قد ظنّ بعض الكتبة انّ منشىء عبادة الشهر المريميّ انّما هو احد اولياء الله الذين اشتهروا في اواسط القرن السادس عشر بنشر عبادة البتول بين المؤمنين وهو القديس فيليب دي نيري (١٥١٥ — ١٥٩٥) وكانت غايتهم من هذا القول ان يزيدوا هذه الطريقة المستحدثة اعتباراً وغناء بنسبتها الى رجل مفضال من اصفيائه تعالى المبرّزين في الفضل والقداسة. لكنّ الحقيقة اولى فانّنا لا نجد في اعمال البولنديين اثراً لهذه العبادة بين مآثر القديس فيليب المذكور. وما يزيدنا ريباً في ذلك انّ تلميذه وكاتب ترجمته الاب ياكشي لم يُشر الى الامر بتاتاً ولا محالة يكون سكت عن ذلك لو كان صحيحاً

واوّل من سبق فذكر شهراً يخصّص لاكرام البتول عليها السلام انّما هو الاب حنا نادازي اليسوعيّ ألّف سنة ١٦٦٤ كتاباً صغير الحجم عدد صفحاته ١٢٣ فطبعهُ في مدينة كولونية ووسمهُ بهذا العنوان: « الحبُّ لمريم وهو يتضمّن ٣١ رياضة تقويّة لاكرام امّ الله مدّة شهر كامل ». وكان وَضع هذا الكتاب في اللاتينيّة ثمّ نُقل الى الالمانيّة سنة ١٧١١. وللاب المذكور تآليف عديدة في العبادة المريميّة عرّب منها الاب بطرس فروماج في القرن الثامن عشر كتابهُ « يسوع الحبيب ومريم المحبوبة ». ومن تآليفه ايضاً كتاب آخر ضمّنهُ فضائل العذراء الطاهرة واعمالها والتعبُّد لها لكلّ يوم من ايّام السنة سمّاهُ السَّنة المريميّة

على انّ تأليف الاب نادازي وان كان شاملاً لرياضات شهريّة في خدمة البتول لم يختصّ بشهر دون آخر وعليه فلا يمكن اعتبار صاحبه كمنشئ عبادة الشهر المريميّ الذي لا يقع اليوم الّا في ايّار

امّا الفضل في تعيين هذا الشهر لاكرام والدة الله فانهُ يعود الى ابوين يسوعيّين آخرين صنّفا كتابين يستفاد منهما تعيين شهر ايّار او نوّار للتعبُّد لمريم ولا نعرف

لاسيما حقّ التقدُّم وهما الاب كافير جاكوله (Fr - X. Jacolet) السويسريُّ الموطن ولد سنة ١٦٨١ وتوفيّ سنة ١٧٤٦ والاب انيبال ديونيزي الايطاليّ المتوفّى سنة ١٧٥٦ في ڤيرونة . اما الاوّل فانّهُ طبع سنة ١٧٢٤ في ديلنغن من اعمال المانية كتابًا دعاهُ « الشهر المريميّ او ترجمة البتول الطاهرة وفضائلها نقلًا عن آباء الكنيسة وهي مقسّمة على عدد ايّام شهر ايّار لتكون دستورًا للمتعبدين لمريم في اخويّتها في ديلنغن ». وعدد صفحات الكتاب ٢١٦ بالحجم الصغير. وهذا المصنَّف نُقل الى لغات شتّى وعُرف باوّل كتاب متضمن لرياضات الشهر المريميّ

اما الثاني فهو اصرح عبارةً مضمونهُ التعبُّد لمريم في شهر ايّار الّفهُ الاب ديونيزي فطبعهُ في زمن الكتاب السابق لكنّ طبعتهُ الاولى فُقدت فلم يوجد منها نسخة معروفة وانّما تُعرف الطبعة الثانية منهُ سنة ١٧٢٦ نُشرت بالايطاليّة في پارمة والارجح انّ الطبعة الاولى سبقت تأليف الاب جاكوله . ومن ثمّ فيكون اوّل كاتب عن شهر ايّار وتكريم العذراء في كلّ يوم من ايّامهِ الاب ديونيزي . وهذا الكتاب طُبع ايضًا غير مرّة تحت اسم « پارثانيو ماريانو » وهو اسم مستعار دلّ بهِ صاحبهُ انتباهَهُ الى العذراء مريم

وهذان الكتابان مع تقدُّمهما لم يصيبا من الشهرة ما اصابهُ كتاب آخر الّفهُ الاب فرنسيس لالوميا اليسوعيّ فطبعهُ في وطنهِ پالرمو سنة ١٧٥٨ ثمّ كرّر طبعهُ مرارًا قبل موت صاحبهِ في الاستانة العليّة ثمّ انتشر بعد وفاتهِ انتشارًا عجيبًا ونُقل الى اكثر اللغات الاوربيّة

وفي تلك الاثناء عصفت في فرنسة الثورة العظمى التي كادت تذهب بالدين كما قوّضت اركان الملك وانتشرت منها الى نواحي اوربّة فخمدت مدّةً العبادة المريميّة في شهر ايّار حتّى اذكى نارها الاب الفونس موزارلي اليسوعيّ بنشرهِ كتابهُ النفيس « الشهر المريمي » المطبوع اولًا سنة ١٧٨٥ . وكان لهذا الاب نفوذ كبير بين الكاثوليك لخدم الكرسي الرسوليّ بنشاط عجيب ورافق پيوس السابع في منفاهُ الى فرنسة وتوفّي في باريس سنة ١٨١٣ . وكان حيثما يحلّ يحرّض المؤمنين على التعلُّق بأهداب البتول الطاهرة والتماس حمايتها خصوصًا في شهر ايّار لتسكن بشفاعتها الاتواء التي كانت تثور الصخرة البطرسيّة . فلبّى المؤمنون دعوتهُ وعادوا الى إكرام امّ الله بحرارة جديدة لم

نزل منذ ذاك الحين في نموّ دائم حتى شملت كلّ البلاد الكاثوليكيّة قاصيها ودانيها. ومما افاد هذه العبادة شيوعًا انّ الاحبار الرومانيين اثبتوها بسلطانهم الاسمى وفتحوا كنوز الغفارين الكنسيّة فافاضوها على من يمارسها. وخصوصاً البابوات بيوس السابع سنة ١٨١٥ وغريغوريوس السادس عشر سنة ١٨٤١ وبيوس التاسع سنة ١٨٥٨

*

ولم تنحصر عبادة الشهر المريميّ في حدود قارة اوربّة بل تجاوزتها مع الجيش الناقل للسلام اي المرسلين الكاثوليكيين فازدهرت في اميركة وآسية حتى انتهت الى الشرق الاقصى. وكفى قولنا دليلًا انّ اليسوعيين وحدهم طبعوا في عدّة لغات غير اللغات الاوربيّة كتبًا ضمّنوها تعبّدات الشهر المريميّ منها في الصينيّة للاب زتولي (Zottoli) والمانشيّة للاب اليو (Ailloud) والتامولية للاب سان سير (Saint-Cyr)

وان قصرنا النظر على بلادنا الشرقيّة وجدناها انّها نالت ايضاً حصّتها من التعبّد المريميّ في شهر نوّار. وكان اوّل من دعا اليه في سوريّة ذلك المرسل النبيه الذي لقبهُ اهل لبنان برسول بكفيّا الاب سليمان استاف (Estève) شرع به في سنة ١٨٣٦ فكان في كلّ يوم من ايّام ايّار يجمع المؤمنين في معبد البتول الطاهرة امام صورة سيّدة النجاة التي سبق في المشرق (٤:٨١٧) ذكر تاريخها ومعجزاتها وكان يخطب اليهم في مناقب البتول المجيدة. فكلف اهل لبنان بهذه العبادة وادخلوها شيئاً فشيئاً في كلّ قرى جبلهم وكذلك انتشرت في المدن الساحليّة وتخطّت حدود الشام فعمّت الاراضي المقدّسة بهمّة الآباء الفرنسيسيين وشملت بلاد ما بين النهرين والعراق بمساعي الآباء الكبوشيين والدومينيكيين والكرمليين

ومما ساعد على نشر هذه العبادة في ظهرانَي بلادنا كتب الشهر المريميّ العربيّة صدر الاوّل منها في مطبعة انتشار الايمان نحو سنة ١٨٣٨ وكان معرّبهُ حضرة القس لباوس المتيني احد افاضل الرهبان الموارنة البلديين ووكيلهم في رومة العظمى نقلهُ عن كتاب الاب موزرلي المذكور سابقًا وكرّر طبعهُ ثانيةً ثمّ ثالثةً سنة ١٨٤٨

واوّل شهر مريميّ شاع في سوريّة ١٨٥٣ كان طبعهُ على الحجر ويختلف بعض الاختلاف عن كتاب الاب موزرلي كأنّهُ ملخّص عنهُ في التأمّلات. ومغاير لهُ في الاخبار

وفي السنة نفسها ابرزت مطبعة الآباء الفرنسيين في القدس الشريف الشهر الذي عرَّبهُ الاب لبَّاوس المتيني. ونشرتهُ مطبعتنا الكاثوليكيَّة سنة ١٨٥٨ ثمَّ مطبعة الآباء الدومينيكيين في الموصل سنة ١٨٧٦. وكرَّر طبعهُ مرارًا في كلّ هذه المطابع

وقد طبعت في بلادنا شهور مريميَّة أُخرى منها في سنة ١٨٧٦ كتاب « اجتناء الاثمار من تكريس شهر ايَّار » للاب استفانس برساني عرَّبهُ من الايطاليَّة حضرة القس يوسف الشابي الراهب الحلبيّ اللبناني الماروني وطبعهُ في المطبعة العموميَّة في بيروت. وفي السنة ١٨٩٢ تولَّى غبطة السيّد افرام الرحماني تعريب شهر آخر نقلهُ عن الافرنسيَّة ونشرهُ في مطبعة المرسلين الدومينيكيين في الموصل يتضمَّن تأمُّلات في سيرة سيّدتنا مريم العذراء ومناقبها واوصافها (ص ٢٥٦ بقطع صغير)

وممَّا نُشر مؤخَّرًا كتاب الشهر المريميّ منقولًا من الافرنسيَّة بقلم الخوري بولس متَّى طُبع في مطبعة الأرز في جونية (ص ١٩٢). وتبعهُ حضرة الاب افرام الديراني احد مدبّري الرهبانيَّة الحلبيَّة فطبع في سنة ١٨٩٩ كتاب « سعادة المُغرَم في عبادة مريم » نقلًا عن الافرنسيَّة وهو عبارة عن ٣١ تأمُّلًا في حياة العذراء وفضائلها تُتلى مساء كلّ يوم من شهر ايَّار

وقد أيَّد الله راقم هذه الاسطر على اتمام كتاب جاء كخاتمة الكتب السابق ذكرها وهو « الكوكب الشارق في مريم سلطانة المشارق » وصفهُ المشرق في عدده الرابع من السنة الجارية (ص ١٨٩). وممَّا نبَّهنا عليهِ في عنوان الكتاب انَّ استعمالهُ يناسب الشهر المريميّ ولذلك قد اضفنا اليهِ ملحقًا اودعناهُ ٣١ خبرًا لكلّ يوم من ايَّام هذا الشهر المبارك مع جدول للقراءات المناسبة. ويسرُّنا ما وجدنا من الاقبال عليهِ منذ صدوره نفعنا الله بشفاعة امّ النور ومورد النعم

*

هذا ولا نريد ان نختم هذه النبذة في تاريخ الشهر المريميّ دون ان نجيل الطرف لمحةً في معناهُ افادةً لمن يسألنا ما السبب الذي حدا بالبيعة المقدَّسة الى اختيار شهر ايَّار دون سواهُ فنقول :

انَّ شعائر الحبّ التي حملت المؤمنين في القرون السالفة على ان يخصّصوا بعض الدقائق

في كلّ يوم لذكر العذراء مريم في صلوة التبشير وساقتهم الى افراز يوم في كلّ اسبوع لاكرامها اعني يوم السبت هي التي انبعثت همهم وحرّكتهم الى تخصيص شهر كامل بتمجيدها واستدرار نعمها السابغة . ولمّا لم يجدوا في فصول السنة شهرًا ابهى من شهر ايّار لبروز الطبيعة فيهِ بجلاهـا السندسيّة وانوارها الزهيّة فضّلوهُ على سواهُ ليكون كعربون اخلاص ودادهم وكشارة عن صدق اعتصامهم بحبل عبادتها الغرّاء . لاسيّما انّهم يرون في هذه الزهور احسن مثال يصوّر لهم فضائل امّهم السموية التي قالت في سفر نشيد الانشاد عن نفسها « انا زهرة الحقل وزنبقة الاودية » . والحق يقال انّ هذه الزهور العطرة تدعوهم بلسان حالها الى ممارسة الفضائل المريميّة المشبّهة بها كحسن العفّة وبنفسج التواضع وورد المحبّة الى غير ذلك من المناقب البتوليّة

ولنا في اصطفاء هذا الشهر على بقيّة الشهور سببٌ آخر وهو انّ هذا الشهر لما تجدهُ فيهِ الابدان من الراحة ونعومة العيش ربّما اصبح خطرًا للنفوس وداعيًا الى الملاذّ والشهوات قاتلة الارواح فاحبّت الكنيسة ان يجد ابناؤها في رياضات الشهر المريميّ دواء ناجعًا لشفاء هذا الداء العُضال فيعدلون عن الآفات التي تتهدّد خلاصهم

وتزيد على ذلك سببًا ثالثًا وهو انّ شهر ايّار خلوٌ من الاعياد المريميّة التي تُقام لذكر البتول في غيرهِ من الشهور فلم يشأ ابناء مريم ان يمرّ عليهم شهرٌ دون اكرامها فاختاروا كل ايّامهِ لذلك وأخرّ بهذا الشهر ان يُكرّس لمريم وهو قريبٌ من الافراح الفصحيّة التي شملت العذراء المجيدة وقشعت عن قلبها غياهب الحزن لمرت وحيدها وفلذة كبدها

فيحقّ اذًا لجميع اولاد الكنيسة ان يقبلوا على ممارسة هذا الشهر العظيم لينعشوا في قلوبهم مع الحبّ لمريم روح البرارة والقداسة على مثالها ويبلغوا بشفاعتها في نيل السعادات الاخرويّة ابعد شأو واقصى منتهى